أعظم الوصايا الوصية بالإسلام

قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

قرأ نافع وابن عامر (وأوصى) بالألف وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام والباقون بغير ألف بالتشديد وكذلك هو في مصاحفهم والمعنى واحد إلا أن في (وصى) دليل مبالغة وتكثير. ا هـ (مفاتيح الغيب ج 2 ص 66).

وقال الماوردى:

ووصّى أبلغ من أوصى، لأن أوصى يجوز أن يكون قاله مرة واحدة، وَوَصَّى لا يكون إلا مراراً. ا هـ (النكت والعيون ج 1 ص 193).

سؤال: الضمير في (بها) إلى أي شيء يعود ؟

الجواب: قال أبو عبيدة: إن شئت رددت الكناية إلى الملة لأنه ذكر ملة إبراهيم، وإن شئت رددتها إلى الوصية: أي وصى إبراهيم بنيه الثمانية إسماعيل وأمه هاجر القبطية، وإسحاق وأمه سارة، وستة أمهم قنطورة بنت يقطن الكنعانية تزوجها إبراهيم بعد وفاة سارة. ا هـ (تفسير البغوى ج 1 ص 153).

وقال ابن عادل:

وبنو إبراهيم ثمانية: إسماعيل وهو أكبر بنيه وأمه هاجر، وإسحاق وأمه سارة وهو ثاني بنيه، ومديان، ومدان، وزمران، ويقشان، وبشباق، وشوح، وهؤلاء أمهم قطورة التي تزوجها إبراهيم بعد موت سارة، وليس لغير إسماعيل وإسحاق خبر مفصل في التوراة سوى أن ظاهر التوراة أن مديان هو جد أمة مدين أصحاب الأيكة وأن موسى - عليه السلام - لما خرج خائفاً من مصر نزل أرض مديان وأن يثرون أو رعوئيل (هو شعيب) كان كاهن أهل مدين. وأما يعقوب فهو ابن إسحاق من زوجه رفقة الأرامية تزوجها سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألف قبل المسيح في حياة جده إبراهيم فكان في زمن إبراهيم رجلاً ولقب بإسرائيل وهو جد جميع بني إسرائيل ومات يعقوب بأرض مصر سنة تسع وثمانين وتسعمائة وألف قبل المسيح ودفن بمغارة المكفلية بأرض كنعان (بلد الخليل) حيث دفن جده وأبوه عليهم السلام. ا هـ (تفسير ابن عادل ج 1 ص 489).

تعليـــق:

الجزم بأن عدد أولاد إبراهيم - عليه السلام - ثمانية وذكر أسمائهم كما فعل ابن عادل وغيره أمر فيه نظر فإن القرآن الكريم لم يذكر لنا من أولاد الخليل - عليه السلام - إلا إسماعيل وإسحاق، ويرجح هذا حكاية القرآن قول أولاد يعقوب - عليه السلام - جوابا لأبيهم عند سؤاله لهم: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقـــرة: ١٣٣] حيـــث أطلقوا الأب على العم فإسماعيل - عليه السلام - عم ليعقوب، والعرب تطلق الأب وتريد العم، كما فى الآية الكريمة، كما تسمي الخالة أما قال النبي ﷺ : **«عم الرجل صنو أبيه»** وقال في عمه العباس: **«ردوا علي أبي فإني أخشى أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود»**. وذلك أنهم قتلوه.

فلو كان لإبراهيم - عليه السلام - أولاد غير إسماعيل وإسحاق لذكرهم أولاد يعقوب - عليه السلام - فى الجواب، كما ذكروا إسماعيل - عليه السلام.

لذا يجب التوقف عند ما أخبر به القرآن وعدم الجزم بما سواه إلا إذا دلت عليه السنة الصحيحة. والله أعلم بالصواب.

من لطائف السهيلي: وبنو إسرائيل: هم بنو يعقوب وكان يسمى: إسرائيل أي سري الله لكن لم يذكروا في القراءة إلا أضيفوا إلى إسرائيل ولم يسموا فيه بنو يعقوب ومتى، ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب لم يسم إسرائيل وذلك لحكمة فرقانية وهو أن القوم لما خوطبوا بعبادة الله وفكروا بدين أسلافهم موعظة لهم وتنبيها من غفلتهم سموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله فإن إسرائيل اسم مضاف إلى الله تعالى في التأويل. ألا ترى: كيف نبه على هذا المعنى رسول الله ﷺ حين دعا إلى الإسلام قوما، يقال لهم بنو عبد الله فقال لهم: **«يا بني عبد الله، إن الله قد حسن اسم أبـــيكم»** يحرضهم بذلك على ما يقتضيه اسمهم من العبودية لله فكذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إنما ورد في معرض التذكرة لهم بدين أبيهم وعبوديته لله فكان ذكرهم بهذا الاسم أليق بمقام التذكرة والتحريض من أن يقول لهم: يا بني يعقوب ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيره بإسحاق ثم يعقوب كان لفظ يعقوب أولى بذلك المقام لأنها موهبة بعقب أخرى، وبشرى عقب بها بشرى وإن كان اسم يعقوب عبرانيا، ولكن لفظه موافق للعربي في العقب والتعقيب

فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين فإنه من باب النظر في إعجاز القرآن وبلاغة ألفاظه وتنزيل الكلام في منازله اللائقة به.ا هـ (الروض الأنف ج 1صـ 249).

فائدة: قال الإمام الفخر – رحمه الله: اعلم أن هذه الحكاية اشتملت على دقائق مرغبة في قبول الدين. **أحدها**: أنه تعالى لم يقل وأمر إبراهيم بنيه بل قال: وصاهم ولفظ الوصية أوكد من الأمر، لأن الوصية عند الخوف من الموت، وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لدينه أشد وأتم، فإذا عرف أنه - عليه السلام - في ذلك الوقت كان مهتماً بهذا الأمر متشدداً فيه، كان القول إلى قبوله أقرب. **وثانيها**: أنه - عليه السلام - خصص بنيه بذلك، وذلك لأن شفقة الرجل على أبنائه أكثر من شفقته على غيرهم، فلما خصهم بذلك في آخر عمره، علمنا أن اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بغيره. **وثالثها**: أنه عمم بهذه الوصية جميع بنيه ولم يخص أحداً منهم بهذه الوصية، وذلك أيضاً يدل على شدة الاهتمام. **ورابعها**: أنه - عليه السلام - أطلق هذه الوصية غير مقيدة بزمان معين ومكان معين، ثم زجرهم أبلغ الزجر عن أن يموتوا غير مسلمين، وذلك يدل أيضاً على شدة الاهتمام بهذا الأمر. **وخامسها**: أنه - عليه السلام - ما مزج بهذه الوصية وصية أخرى، وهذا يدل أيضاً على شدة الاهتمام بهذا الأمر، ولما كان إبراهيم - عليه السلام - هو الرجل المشهود له بالفضل وحسن الطريقة وكمال السيرة، ثم عرف أنه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر، عرف حينئذ أن هذا الأمر أولى الأمور بالاهتمام، وأجراها بالرعاية، فهذا هو السبب في أنه خص أهله وأبناءه بهذه الوصية، وإلا فمعلوم من حال إبراهيم - عليه السلام - أنه كان يدعو الكل أبداً إلى الإسلام والدين. ا هـ (مفاتيح الغيب ج 4 ص 66).

سؤال: لم عطف يعقوب على إبراهيم فى الآية الكريمة ؟

وعطف يعقوب على إبراهيم هنا إدماج مقصود به تذكير بني إسرائيل (الذي هو يعقوب) بوصية جدهم فكما عرض بالمشركين في إعراضهم عن دين أوصى به أبوهم عرض باليهود كذلك لأنهم لما انتسبوا إلى إسرائيل وهو يعقوب الذي هو جامع نسبهم بعد إبراهيم لتقام الحجة عليهم بحق اتباعهم الإسلام. ا هـ

(تفسير ابن عادل ج 1 ص 489).

سؤال: فإن قلت، لم قال: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾ ولم يقل أمرهم ؟.

الجواب: قلت: لأن لفظ الوصية أوكد من لفظ الأمر لأن الوصية إنما تكون عند الخوف من الموت وفي ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لولده أشد وأعظم، وكانوا هم إلى قبول وصيته أقرب وإنما خص بنيه بهذه الوصية لأن شفقة الرجل على بنيه أكثر من شفقته على غيرهم. وقيل: لأنهم كانوا أئمة يقتدى بهم فكان صلاحهم صلاحاً لغيرهم. ا هـ (تفسير الخازن ج 1 ص 85).

سؤال: لم أدخل"الألف واللام" في"الدين" ؟

الجواب: وإنما أدخل"الألف واللام" في"الدين"، لأن الذين خوطبوا من ولدهما وبنيهما بذلك، كانوا قد عرفوه بوصيتهما إياهم به، وعهدهما إليهم فيه، ثم قالا لهم -بعد أن عرفاهموه: إن الله اصطفى لكم هذا الدين الذي قد عهد إليكم فيه، فاتقوا الله أن تموتوا إلا وأنتم عليه. ا هـ (تفسير الطبرى ج 3 ص 96).

سؤال: فإن قيل: كيف يُنْهَونَ عن الموت وليس من فعلهم، وإنما يُمَاتُون ؟

الجـــواب: قيل: هذا في سعة اللغة مفهوم المعنى، لأن النهي تَوَجَّهَ إلى مفارقة الإسلام، لا إلى الموت، ومعناه: الزموا الإسلام ولا تفارقوه إلى الموت. ا هـ

(النكت والعيون ج 1 ص 193).

وقال الآلوسى:

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] نهي عن الاتصاف بخلاف حال الإسلام وقت الموت، والمفهوم من الآية ظاهراً النهي عن الموت على خلاف تلك الحال، وليس بمقصود لأنه غير مقدور وإنما المقدور قيده فيعود النهي إليه، والمراد من الأمر الذي يشير إليه ذلك النهي الثبات على الإسلام لأنه اللازم له، والمقصود من التوصية، ولأن أصل الإسلام كان حاصلاً لهم، وإنما أدخل حرف النفي على الفعل مع أنه ليس منهياً عنه للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه، وأن حقه أن لا يحل بهم وأنه يجب أن يحذروه غاية الحذر، وذكر بعضهم أن الإسلام المأمور به هنا ما يكون بالقلب دون العمل بالجوارح لأن ذلك مما لا يكاد يمكن عند الموت؛ ولهذا ورد في الحديث: **«اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتفوه على الإيمان»** ولا

يخفى ما فيه.

ا هـ (روح المعانى - ج 1 ص 390 - باختصار يسير).

وقال الخازن:

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي مؤمنون مخلصون فالمعنى دوموا على إسلامكم حتى يأتيكم الموت وأنتم مسلمون؛ لأنه لا يعلم في أي وقت يأتي الموت على الإنسان. وقيل: في معنى ﴿ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي محسنون الظن بالله عز وجل يدل عليه ما روي عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: **«لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يحسن الظن بربه»** أخرجاه في الصحيحين. ا هـ (تفسير الخازن ج 1 ص 86)

وقال فى البحر المحيط:

﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] هذا استثناء من الأحوال، أي إلا على هذه الحالة، والمعنى: الثبوت على الإسلام، والنهي في الحقيقة إنما هو عن كونهم على خلاف الإسلام. إلا أن ذلك نهى عن الموت، ونظير ذلك في الأمر: مت وأنت شهيد، لا يكون أمراً بالموت، بل أمر بالشهادة، فكأنه قال: لتستشهد في سبيل الله، وذكر الموت على سبيل التوطئة للشهادة. وقد تضمن هذا الكلام إيجازاً بليغاً ووعظاً وتذكيراً، وذلك أن الإنسان يتيقن بالموت ولا يدري متى يفاجئه. فإذا أمر بالتباس بحالة لا يأتيه الموت إلا عليها، كان متذكراً للموت دائماً، إذ هو مأمور بتلك الحالة دائماً. وهذا على الحقيقة نهي عن تعاطي الأشياء التي تكون سبباً للموافاة على غير الإسلام، ونظير ذلك قولهم: لا أرينك هنا، لا ينهي نفسه عن الرؤية، ولكن المعنى على النهي عن حضوره في هذا المكان، فيكون يراه، فكأنه قال: اذهب عن هذا المكان. ألا ترى أن المخاطب ليس له أن يحجب إدراك الآمر عنه إلا بالذهاب عن ذلك المكان، فأتى بالمقصود بلفظ يدل على الغضب والكراهة، لأن الإنسان لا ينهى إلا عن شيء يكره وقوعه.

وقد اشتملت هذه الجملة على لطائف، منها: الوصية، ولا تكون إلا عند خوف الموت. ففي ذلك ما كان عليه إبراهيم من الاهتمام بأمر الدين، حتى وصى به من كان ملتبساً به، إذ كان بنوه على دين الإسلام. ومنها اختصاصه ببنيه، ولا يختصهم إلا بما

فيه سلامة عاقبتهم. ومنها أنه عمم بنيه، ولم يخص أحداً منهم، كما جاء في حديث النعمان بن بشير، حين نحله أبوه شيئاً، فقال له رسول الله ﷺ : **«أتحب أن يكونوا لك في البر سواء؟»** ورد نحله إياه وقال: **«لا أشهد على جـــور»**. ومنها إطلاق الوصية، ولم يقيدها بزمان ولا مكان. ثم ختمها بأبلغ الزجر أن يموتوا غير مسلمين. ثم التوطئة لهذا النهي والزجر بأن الله تعالى هو الذي اختار لكم دين الإسلام، فلا تخرجوا عما اختاره الله لكم.ا هـ (البحر المحيط ج 1 ص 571).

وقال ابن عادل:

وللعرب في النهي المراد منه النهي عن لازمه طرق ثلاثة: **الأول**: أن يجعلوا المنهي عنه مما لا قدرة للمخاطب على اجتنابه فيدلوا بذلك على أن المراد نفي لازمه مثل قولهم: لا تنس كذا أي لا ترتكب أسباب النسيان، ومثل قولهم: لا أعرفنك تفعل كذا، أي: لا تفعل فأعرفك؛ لأن معرفة المتكلم لا ينهى عنها المخاطب، وفي الحديث: **«فـــلا يذادن أقوام عن حوضـــي»**، **الثـــاني**: أن يكون المنهي عنه مقدوراً للمخاطب ولا يريد المتكلم النهي عنه ولكن عما يتصل به أو يقارنه فيجعل النهي في اللفظ عن شيء ويقيده بمقارنه للعلم بأن المنهي عنه مضطر لإيقاعه فإذا أوقعه اضطر لإيقاع مقارنه نحو قولك: لا أراك بثياب مشوهة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، **الثالث**: أن يكون المنهي عنه ممكن الحصول ويجعله مفيداً مع احتمال المقام لأن يكون النهي عن الأمرين إذا اجتمعا ولو لم يفعل أحدهما نحو لا تجئني سائلاً وأنت تريد أن لا يسألك فإما أن يجيء ولا يسأل وإما أن لا يجيء بالمرة، وفي الثانية إثبات أن بني إبراهيم ويعقوب كانوا على ملة الإسلام وأن الإسلام جاء بما كان عليه إبراهيم وبنوه حين لم يكن لأحد سلطان عليهم، وفيه إيماء إلى أن ما طرأ على بنيه بعد ذاك من الشرائع إنما اقتضته أحوال عرضت وهي دون الكمال الذي كان عليه إبراهيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨]. ا هـ (تفسير ابن عادل ج 2 ص 120)

وقال التستري:

﴿ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وإنما تعبد

الله الخلق على حسب طاقاتهم، والذين قيل لهم: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] طولبوا بالتقوى على حسب معرفتهم بالله، فكان معنى ذلك، أي اتقوا الله حق تقاته ما قدرتم عليه، لا أنه رخص في ترك التقوى بتلك الآية: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] أي مسلمون لأمر الله بكل حال مفوضون إليه، والآخرون ردوا إلى الاجتهاد، فافهم الفرق بين الاثنين في الخطاب، إذا كان اللفظ متفقاً والمعنى مختلفاً خاص وعام. قال أبو بكر: ثم قال سهل: لو دعا المتقون على المسرفين لهلك الأولون والآخرون منهم، ولكن الله جعل المتقين رحمة للظالمين ليستنقذهم بهم، فإنّ أكرم الخلق على الله عزَّ وجلَّ المتقون كما قال الله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] فمن أراد كرامة الله عزَّ وجلَّ فليتَّقِه، فإنه ينال بالتقوى كرامته، والدخول إلى جنته، ويسكن في جواره، ويفوز فوزاً عظيماً.(تفسير التسترى ص 28)

فائدة لغوية: " يعقوب " علم أعجمي ولذلك لا ينصرف، ومن زعم أنه سُمِّي يعقوب؛ لأنه وُلِد عقب العيص أخيه، وكانا توأمين، أو لأنه كثر عَقِبهُ ونَسْلُه فقد وهم؛ لأنه كان ينبغي أن ينصرف، لأنه عربي مشتق.

ويعقوب أيضاً ذَكَرُ الْحَجَل، إذ سمي به المذكر انصرف؛ والجمع يَعَاقِبَة وَيَعَاقِيب، و" اصْطَفَى " ألفه عن ياء تلك الياء منقلبة عن " واو "؛ لأنها من الصَّفْوة، ولما صارت الكلمة أربعة فصاعداً، قلبت ياء، ثم انقلبت ألفاً. ا هـ

(تفسير ابن عادل ج 2 ص 120)

وقال القشيرى:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. أخبر أن إبراهيم - عليه السلام - وصَّى بنيه، وكذلك يعقوب - عليه السلام - قال لبنيه لا يصيبنكم الموت إلا وأنتم بوصف الإسلام. فشرائعهم - وإن اختلفت في الأفعال - فالأصل واحد، ومشرب التوحيد لا ثاني - له في التقسيم - وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] بشارة بما تقوي به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يعينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام. ا هـ

(لطائف الإشارات ج 1صـ 127 - 128).

فروق لغوية دقيقة:

الفرق بين الدين والملة:

أن الملة اسم لجملة الشريعة والدين اسم لما عليه كل واحد من أهلها ألا ترى أنه يقال: فلان حسن الدين ولا يقال حسن الملة، وإنما يقال: هو من أهل الملة ويقال لخلاف الذمي: الملي نسب إلى جملة الشريعة فلا يقال له: ديني، وتقول: ديني دين الملائكة، ولا تقول: ملتي ملة الملائكة؛ لأن الملة اسم للشرائع مع الإقرار بالله، والدين ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنه يقربه إلى الله وإن لم يكن فيه شرائع مثل دين أهل الشرك وكل ملة دين وليس كل دين ملة؛ واليهودية ملة لأن فيها شرائع وليس الشرك ملة وإذا أطلق الدين فهو الطاعة العامة التي يجازى عليه بالثواب مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

وإذا قيد اختلفت دلالته، وقد يسمى كل واحد من الدين والملة باسم الآخر في بعض المواضع لتقارب معنييهما، والأصل ما قلنا، والفرس تزعم أن الدين لفظ فارسي وتحتج بأنهم يجدونه في كتبهم المؤلفة قبل دخول العربية أرضهم بألف سنة ويذكرون أن لهم خطا يكتبون به كتابهم المنزل بزعمهم يسمى دين دوري أي كتابة الذي سماه بذلك صاحبهم زرادشت ونحن نجد للدين أصلا واشتقاقا صحيحا في العربية وما كان كذلك لا نحكم عليه بأنه أعجمي وإن صح ما قالوه فإن الدين قد حصل في العربية والفارسية اسما لشيء واحد على جهة الاتفاق وقد يكون على جهة الاتفاق ما هو أعجب من هذا.

وأصل الملة في العربية المل وهو أن يعدو الذئب على شيء ضربا من العدو فسميت الملة ملة لاستمرار أهلها عليها، وقيل: أصلها التكرار، من قولك: طريق مليل إذا تكرر سلوكه حتى توطأ ومنه الملل وهو تكرار الشيء على النفس حتى تضجر، وقيل الملة مذهب جماعة يحمي بعضهم لبعض عند الأمور الحادثة.

وأصلها من المليلة وهي ضرب من الحمى ومنه الملة موضع النار وذلك أنه إذا دفن فيه اللحم وغيره تكرر عليه الحمى حتى ينضج.

وأصل الدين الطاعة ودان الناس لملكهم أي أطاعوه، ويجوز أن يكون أصله العادة ثم قيل للطاعة: دين؛ لأنها تعتاد وتوطن النفس عليها.

الفرق بين الدين والشريعة:

أن الشريعة هي الطريقة المأخوذ فيها إلى الشيء ومن ثم سمي الطريق إلى الماء شريعة ومشرعة وقيل: الشارع لكثرة الأخذ فيه والدين ما يطاع به المعبود ولكل واحد منا دين وليس لك واحد منا شريعة، والشريعة في هذا المعنى نظير الملة إلا أنها تفيد ما يفيده الطريق المأخوذ ما لا تفيده الملة ويقال شرع في الدين شريعة كما يقال طرق فيه طريقا والملة تفيد استمرار أهلها عليها. ا هـ (الفروق فى اللغة ص 188).

قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

سؤال: ما نوع ﴿ أَمْ ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ﴾ ؟

الجواب: فيه قولان الأول: أنها منقطعة عما قبلها، ومعنى الهمزة فيها الإنكار أي: بل ما كنتم شهداء، "والشهداء" جمع شهيد بمعنى الحاضر أي ما كنتم حاضرين عندما حضر يعقوب الموت، والخطاب مع أهل الكتاب، كأنه تعالى قال لهم فيما كانوا يزعمون من أن الدين الذي هم عليه دين الرسل: كيف تقولون ذلك وأنتم تشهدون وصايا الأنبياء بالدين؟ ولو شهدتم ذلك لتركتم ما أنتم عليه من الدين ولرغبتم في دين محمد ﷺ الذي هو نفس ما كان عليه إبراهيم - عليه السلام - ويعقوب وسائر الأنبياء عليهم السلام بعده.

فإن قيل: الاستفهام على سبيل الإنكار إنما يتوجه على كلام باطل، والمحكى عن يعقوب في هذه الآية ليس كلاًما باطلاً بل حقاً، فكيف يمكن صرف الاستفهام على سبيل الإنكار إليه ؟

قلنا: الاستفهام على سبيل الإنكار متعلق بمجرد ادعائهم الحضور عند وفاته هذا هو الذي أنكره الله تعالى. فأما ذكره بعد ذلك من قول يعقوب - عليه السلام: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ﴾ [البقرة: ١٣٣] فهو كلام مفصل بل كأنه تعالى لما أنكر حضورهم في ذلك الوقت شرح بعد ذلك كيفية تلك الوصية.

القول الثاني: في أن ﴿ أَمْ ﴾ في هذه الآية متصلة، وطريق ذلك أن يقدر قبلها محذوف كأنه قيل: أتدعون على الأنبياء اليهودية، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت؛ يعني إن

أوائلكم من بني إسرائيل كانوا مشاهدين له إذ دعا بنيه إلى ملة الإسلام والتوحيد، وقد علمتم ذلك فما لكم تدعون على الأنبياء ما هم منه برآء. ا هـ (مفاتيح الغيب ج 4 ص 67 - 68).

سؤال: لفظة ﴿ مَا ﴾ لغير العقلاء فكيف أطلقه في المعبود الحق ؟

وجوابه من وجهين: الأول: أن ﴿ مَا ﴾ عام في كل شيء والمعنى أي شيء تعبدون. **والثاني:** قوله: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] كقولك عند طلب الحد والرسم: ما الإنسان ؟. ا هـ (مفاتيح الغيب حـ4 ص 68)

فائدة: حكى القاضي عن ابن عباس: أن يعقوب - عليه السلام - جمعهم إليه عند الوفاة، وهم كانوا يعبدون الأوثان والنيران، فقال: يا بني ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك ثم قال القاضي: هذا بعيد لوجهين. **الأول:** أنهم بادروا إلى الاعتراف بالتوحيد مبادرة من تقدم منه العلم واليقين. **الثاني:** أنه تعالى ذكر في الكتاب حال الأسباط من أولاد يعقوب وأنهم كانوا قوماً صالحين وذلك لا يليق بحالهم. ا هـ (مفاتيح الغيب حـ4 ص 69).

سؤال: لم ذكر هذه العبارة: ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾ [البقرة: ١٣٣] قبل ذكر الخبر ؟

الجـــواب: قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ﴾ [البقرة: ١٣٣] بدل من: ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ ﴾ [البقرة: ١٣٣] وفائدة المجيء بالخبر على هذه الطريقة دون أن يقال أم كنتم شهداء إذ قال يعقوب لبنيه عند الموت، هي قصد استقلال الخبر وأهمية القصة وقصد حكايتها على ترتيب حصولها، وقصد الإجمال ثم التفصيل؛ لأن حالة حضور الموت لا تخلو من حدث هام سيحكى بعدها فيترقبه السامع وهذه الوصية جاءت عند الموت وهو وقت التعجيل بالحرص على إبلاغ النصيحة في آخر ما يبقى من كلام الموصى فيكون له رسوخ في نفوس الموصين. ا هـ (التحرير والتنوير حـ2 ص 420).

أسئلة وأجوبة:

وجاء يعقوب في وصيته بأسلوب الاستفهام لينظر مقدار ثباتهم على الدين حتى يطّلع على خالص طويتهم ليلقي إليهم ما سيوصيهم به من التذكير وجيء في السؤال بما الاستفهامية دون من؛ لأن ما هي الأصل عند قصد العموم؛ لأنه سألهم عما يمكن أن

يعبده العابدون.

واقترن ظرف ﴿ بَعْدِى ﴾ [البقرة: ١٣٣] بحرف (من) لقصد التوكيد فإن (من) هذه في الأصل ابتدائية فقولك: جئت من بعد الزوال يفيد أنك جئت في أول الأزمنة بعد الزوال ثم عوملت معاملة حرف تأكيد.

وجملة: قالوا نعبد إلهك، جواب عن قوله: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] جاءت على طريقة المحاورات بدون واو وليست استئنافاً؛ لأن الاستئناف إنما يكون بعد تمام الكلام ولا تمام له قبل حصول الجواب.

وجيء في قوله: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] معرفاً بالإضافة دون الاسم العلم بأن يقول: نعبد الله؛ لأن إضافة إله إلى ضمير يعقوب وإلى آبائه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآباؤه يصفون الله بها فيما لقنه لأبنائه منذ نشأتهم، ولأنهم كانوا سكنوا أرض كنعان وفلسطين مختلطين ومصاهرين لأمم تعبد الأصنام من كنعانيين وفلسطينيين وحثيين وأراميين ثم كان موت يعقوب في أرض الفراعنة وكانوا يعبدون آلهة أخرى. وأيضاً فمن فوائد تعريف الذي يعبدونه بطريق الإضافة إلى ضمير أبيهم وإلى لفظ آبائه أن فيها إيماء إلى أنهم مقتدون بسلفهم.

وفي الإتيان بعطف البيان من قولهم ﴿ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] ضرب من محسن الاطراد تنويهاً بأسماء هؤلاء الأسلاف كقول ربيعة بن نصر بن قعين:

إنْ يقتلوك فقد ثَللت عُروشهم ::: بعُتَيْبَةَ بن الحارث بن شهاب

وإنما أعيد المضاف في قوله: ﴿ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] لأن إعادة المضاف مع المعطوف على المضاف إليه أفصح في الكلام وليست بواجبة، وإطلاق الآباء على ما شمل إسماعيل وهو عم ليعقوب إطلاق من باب التغليب ولأن العم بمنزلة الأب.

وإنما أعيد لفظ إلها ولم يقتصر على وصف واحداً لزيادة الإيضاح لأن المقام مقام إطناب ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله، وهذا أسلوب من الفصاحة إذ يعاد اللفظ ليبنى عليه وصف أو متعلق ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعاً، وليس

المقصود من ذلك مجرد التوكيد ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ [الفرقان: ٧٢] وقوله: ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ ﴾ [الإسراء: ٧] وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٣] إذ أعاد فعل أمدكم.

ا هـ (التحرير والتنوير حـ2 ص 421 - بتصرف يسير)

كلام نفيس للشهيد سيد قطب – رحمه الله – فى الآية الكريمة:

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير.. ميت يحتضر. فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار ؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر، يسجل فيه كل التفصيلات ؟.

إنها العقيدة.. هي التركة. وهي الذخر. وهي القضية الكبرى، وهي الشغل الشاغل، وهي الأمر الجلل، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته:

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي ﴾ [البقرة: ١٣٣].

هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله. وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها. وهذه هي الأمانة والذخر والتراث..

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه. إنهم يتسلمون التراث ويصونونه. ا هـ

(فى ظلال القرآن حـ1 ص 90)

ومن لطائف الإمام القشيرى فى الآية الكريمة

قوله جلّ ذكره: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ

بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

جروا كلهم - صلوات الله عليهم - على منهاج واحد في التوحيد والإسلام، وتوارثوا ذلك خَلَفًا عن سَلَف، فهم أهل بيت الزلفة، ومستحقو القربة، والمُطَهَّرون من قِبَل الله - على الحقيقة.

قوله جلّ ذكره: ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

لم يقولوا إلهنا مراعاة لخصوصية قَدْره، حيث سلموا له المزية، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طُيَّع له بقولهم ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ا هـ (لطائف الإشارات حـ1 ص 128)

فروق لغوية دقيقة: الفرق بين الولد والابن:

أن الابن يفيد الاختصاص ومداومة الصحبة ولهذا يقال: ابن الفلاة لمن يداوم سلوكها وابن السرى لمن يكثر منه وتقول: تبنيت ابنا إذا جعلته خاصا بك، ويجوز أن يقال: إن قولنا: هو ابن فلان يقتضي أنه منسوب إليه؛ ولهذا يقال: الناس بنو آدم؛ لأنهم منسوبون إليه وكذلك بنو إسرائيل، والابن في كل شيء صغير فيقول الشيخ كانوا يسمعون أممهم أبناءهم؛ ولهذا كني الرجل بأبي فلان وإن لم يكن له ولد على التعظيم والحكماء والعلماء يسمون المتعلمين أبناءهم، ويقال لطالبي العلم: أبناء العلم، وقد يكنى بالابن كما يكنى بالأب كقولهم: ابن عرس وابن تمرة وابن آوى وبنات طبق وبنات نعش وبنات وردان.

وقيل: أصل الابن التأليف والاتصال من قولك: بنية وهو مبني وأصله بني وقيل: بنو؛ ولهذا جمع على أبناء فكان بين الأب والابن تأليف والولد يقتضي الولادة ولا يقتضيها الابن، والابن يقتضي أبا يقتضي والدا ولا يسمى الإنسان والدا إلا إذا صار له ولد وليس هو مثل الأب؛ لأنهم يقولون في التكنية: أبو فلان وإن لم يلد فلانا ولا يقولون في هذا والد فلان إلا أنهم قالوا في الشاة: والد في حملها قبل أن تلد وقد ولدت إذا ولدت يقال: الابن للذكر والولد للذكر والأنثى. ا هـ (الفروق فى اللغة ص 241).

قولـه تعـالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٤].

الأمة على وجوه:

الأول: الجماعة كما في الآية.

والثاني: القدوة والإمام في قولـه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ [النحل: ١٢٠].

والثالث: القامة في قول الأعشى:

وإن معاوية الأكرمين ::: حسان الوجوه، طوال الأمم

والرابع: الاستقامة في الدين والدنيا. قال النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسي ريبة ::: وهل يأثمن ذو أمة

وهو طائع أي: ذو ملة ودين

والخامس: الحين في قولـه: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥].

والسادس: أهل الملة الواحدة في قولهم: أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمد صلى الله عليه وعليهما.

وأصل الباب القصد من أمه يومه أما: إذا قصده. ا هـ(مجمع البيان حـ1 ص 401 - 402).

كلام نفيس فى الآية الكريمة:

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التى هى إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون: ﴿ أُمَّةٌ ﴾ هى فى الأصل المقصود كالعهدة بمعنى المعهود وسمى بها الجماعة؛ لأن فرق الناس تؤمها أى يقصدونها ويقتدون بها وهى خبر تلك: ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ أى مضت بالموت وانفردت عمن عداها، وأصله صارت إلى الخلاء وهى الأرض التى لا أنيس بها، والجملة نعت لأمة: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ تقديم المسند لقصره على المسند إليه أى لها كسبها لا كسب غيرها: ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ لا كسب غيركم: ﴿ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى لا تؤاخذون بسيئات الأمة الماضية كما فى قولـه: ﴿ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ [سبأ: ٢٥]، كما لا تثابون بحسناتهم فلكل أجر عمله وذلك لما ادعى اليهود أن يعقوب - عليه

السلام - مات على اليهودية وأنه - عليه السلام - وصى بها بنيه يوم مات وردوا بقوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ﴾ الآية قالوا: هب أن الأمر كذلك أليسوا آباءنا وإليهم ينتهى نسبنا فلا جرم ننتفع بصلاحهم ومنزلتهم عند الله تعالى قالوا ذلك مفتخرين بأوائلهم فردوا بأنهم لا ينفعهم انتسابهم إليهم وإنما ينفعهم اتباعهم فى الأعمال فإن أحدا لا ينفعه كسب غيره كما قال - عليه السلام: **«يا بنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم»** وقال - عليه السلام: **«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»** يعنى من أخره فى الآخرة عمله السيئ أو تفريطه فى العمل الصالح لم ينفعه شرف نسبه ولم تنجبر نقيصته به قال الشاعر:

أتفخر باتصالك من على ولـيس بنـافع ::: وأصل البؤسة الماء القراح يدنسه صنائعك نسب زكى ::: القباح

والأبناء وإن كانوا يتشرفون بشرف آبائهم إلا إنه إذا نفخ فى الصور فلا أنساب والافتخار بمثل هذا كالافتخار بمتاع غيره وإنه من الجنون فلا بد من كسب العمل والإخلاص فيه فإنه المنجى بفضل الله تعالى وجاء فى حديث طويل وهو أن رسول الله ﷺ قال: **«إنى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاء بره لوالديه فرده عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما ورد حوضا منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلا من أمتى والنبيون قعود حلقا حلقا كلما دنا لحلقة طرد فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده وأقعده إلى جنبى ، ورأيت رجلا من أمتى بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة فهو متحير فجاءته حجته وعمرته فاستخرجتاه من الظلمة وأدخلتاه فى النور ، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت: يا معشر المؤمنين كلموه كلموه ، ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت سترا على وجهه وظلا على رأسه ، ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده**

فأدخله على الله ، ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها فى يمينه ، ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى أهوى فى النار فجاءته دموعه التى بكى بها من خشية الله فاستخرجته من النار ، ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا ويتعلق أحيانا فجاءته صلاته علىَّ فأخذت بيده وأقامته ومضى على الصراط ، ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة».

قال رسول الله ﷺ : **«من قال: لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة»** قيل: يا رسول الله وما إخلاصها ؟ قال: **«أن تحجزه عن محارم الله»** فعلم من هذا التفصيل أن الخلاص وإن كان بفضل الله تعالى لكنه منوط بالأعمال الصالحة فالقرابة لا تغنى شيئا إذا فسد العمل، وأما قول من قال: إذا طاب أصل المرء طابت فروعه فباعتبار الغالب فإن من عادته تعالى أن يخرج الحى من الميت والميت من الحى.

والعود الذى تفوح رائحته وإن كان فى الأصل شجرة كسائر الأشجار إلا إنه لما كان له استعداد لتلك المرتبة وحصل ذلك بالتربية فاق على الأقران وخرج من جنس الأصل وكذا المسك فإن أصله دم، وكم من نسيب يعود على أصله بالعكس فيظهر فيه أثر الصلاح الباطن فى أبيه إن كان أى أبوه فاسقا أو الفساد الباطن فيه إن كان صالحا وكم من فرع يميل إلى أصله على وجه فانظر حال آدم - عليه السلام - وولديه هابيل وقابيل ومن بعدهم إلى قيام الساعة. ا هـ(روح البيان - ج 1 ص 301 - 302).

فوائد جليلة دلت عليها الآية الكريمة:

الآية دالة على مسائل:

المسألة الأولى: الآية دالة على بطلان التقليد، لأن قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ يدل على أن كسب كل أحد يختص به ولا ينتفع به غيره، ولو كان التقليد جائزاً لكان كسب المتبوع نافعاً للتابع، فكأنه قال: إني ما ذكرت حكاية أحوالهم طلباً منكم أن تقلدوهم، ولكن لتنبهوا على ما يلزمكم فتستدلوا وتعلموا أن ما كانوا عليه من الملة هو الحق.

المسألة الثانيـــة: الآية دالة على ترغيبهم في الإيمان، واتباع محمد عليه الصلاة والسلام، وتحذيرهم من مخالفته.

المسألة الثالثة: الآية دالة على أن الأبناء لا يثابون على طاعة الآباء بخلاف قول اليهود من أن صلاح آبائهم ينفعهم، وتحقيقه ما روي عنه - عليه السلام - أنه قال: **«يا صفية عمة محمد، يا فاطمة بنت محمد، ائتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً»**.

المسألة الرابعة: الآية تدل على بطلان قول من يقول: الأبناء يعذبون بكفر آبائهم وكان اليهود يقولون: إنهم يعذبون في النار لكفر آبائهم باتخاذ العجل وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠] وهي أيام عبادة العجل فبين الله تعالى بطلان ذلك. ا هـ(مفاتيح الغيب حـ4 ص 71).

ومن لطائف الإمام القشيرى فى الآية الكريمة:

أنزل الحقُّ - سبحانه - كُلاً بمحلّه، وأفرد لكل واحدٍ قَدْراً بموجبِ حكمه، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر، ولا بما خَصَّ به كل طائفة إلى آخرين أثر، وكلٌّ في إقليمه مَلِك، ولكلٍ يدور بالسعادة فَلَك. ا هـ(لطائف الإشارات حـ1 ص 128).

فوائد ولطائف: المراد بما كسبت وبما كسبتم ثواب الأعمال بدليل التعبير فيه بلها ولكم، ولك أن تجعل الكلام من نوع الاحتباك والتقرير لها ما كسبت وعليكم ما كسبتم أي إثمه.

وتقديم المسندين على المسند إليهما في: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ لقصر المسند إليه على المسند أي ما كسبت الأمة لا يتجاوزها إلى غيرها وما كسبتم لا يتحاوزكم.

ونفى السؤال عن العمل لأنه أقل أنواع المؤاخذة بالجريمة فإن المرء يؤخذ بجريمته فيسأل عنها ويعاقب وقد يسأل المرء عن جريمة غيره ولا يعاقب كما يلام على القوم فعل بعضهم ما لا يليق وهو شائع عند العرب قال زهير:

لعمري لنِعْمَ الحيُّ جَرَّ عليهم ::: بما لا يُواتيهم حُصَين بن ضَمْضمِ

فنفي أصل السؤال أبلغ وأشمل للأمرين، وإن جعلت قوله: ﴿ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ مراداً به الأعمال الذميمة المحيطة بهم كان قوله: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ ﴾ إلخ احتراساً واستيفاء لتحقيق

معنى الاختصاص أي كل فريق مختص به عمله أو تبعته ولا يلحق الآخر من ذلك شيء ولا السؤال عنه، أي لا تحاسبون بأعمال سلفكم وإنما تحاسبون بأعمالكم. ا هـ(التحرير والتنوير حـ1 ص 422 - بتصرف يسير).

لطيفة: حكى عن بعض العلماء أنه سئل عما وقع من الفتن بين علي ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة - رضوان الله عليهم - فقرأ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٤] وهذا جواب حسن في مثل هذا السؤال. ا هـ(تفسير السمعانى ج 1 ص 148).

(بصيرة فى الأمة)

الأُمَّة لغة: الرّجُل الجامع للخير، والإمام، وجماعةٌ أرسل إليهم رَسُول، والجيل من كل حيّ، والجنس، ومَن هو على الحقّ، ومُخالف لسائر الأديان، والحِين، والقامة، والأُمُّ، والوجه والنشاط، والطَّاعة، والعالِم، ومن الوجه: مُعظمُه، ومن الرجل قومه. وأُمَّة الله تعالى: خَلْقه.

وقد ورد فى نصّ القرآن على عشرة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى الصَّف المصفوف: ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨] أى صفوف.

الثانى: بمعنى السّنين الخالية: ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥] أى بعد سنين.

الثالث: بمعنى الرّجل الجامع للخير: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل: ١٢٠].

الرابع: بمعنى الدّين، والمِلَّة: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢].

الخامس: بمعنى الأمَم السّالفة، والقرون الماضية: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ [الرعد: ٣٠].

السّادس: بمعنى القوم بلا عدد: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨].

السابع: بمعنى القوم المعدود: ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص: ٢٣]، ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ﴾ [الأعراف: ١٦٤] أى أربعين رجلاً.

الثامن: بمعنى الزَّمان الطَّويل: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود: ٨].

التاسع: بمعنى الكُفَّار خاصّة: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ ﴾ [الرعد: ٣٠].

العاشر: بمعنى أهل الإسلام: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [البقرة: ٢١٣] أى صِنفاً واحداً، وعلى طريقة واحدة فى الضَّلال والكفر، ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [هود: ١١٨] أى فى الإيمان، ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] أى جماعة يتَخَيَّرُون العلم، والعمل الصَّالح، أى يكونون أُسْوة لغيرهم. اهـ(بصائر ذوى التمييز - للفيروزابادى ج 2 ص 112).

* * *